

المحاضرة الثامنة

الأهداف :

تمكين الطالب من معرفة الإمارات الخارجية ببلاد المغرب (المدراريين والرستميين)
ومعرفة نحلهم وتتبع سلسلة أئمتهم وأشهر أعمالهم إلى غاية سقوطهم على يد
الفاطميين .

المغرب على عهد الدويلات المستقلة (عهد الدويلات المستقلة الأول)
أولا : دولة بني مدرار في سجلماسة :

ظهرت هذه الدولة في جنوب المغرب الأقصى في إقليم سجلماسة وهي
منطقة بعيدة عن مركز الخلافة العباسية في المشرق ، وقد اعتنق سكانها المذهب
الخارجي الصفري ، حيث التفوا في البداية حول رجل اسمه عيسى ابن يزيد الأسود
المكناسي الصفري وكان صاحب ماشية ونزل بأرض سجلماسة في 138 هـ واجتمع
حوله الناس ثم بايعه أبو القاسم بن واسول المكناسي الزناتي وحمل قومه على
طاعته ، ثم شرعوا في بناء سجلماسة سنة 140 هـ ، غير أن أهل سجلماسة
أنكروا على زعيمهم عيسى بعض الأمور فربطوه إلى جذع شجرة وطلوه بالعسل حتى
قتله النحل سنة 155 هـ ، بينما قال ابن الخطيب بوقوع ذلك سنة 167 هـ وعن
ذلك يقول ابن عذاري المراكشي : >> كان أبو القاسم سمغون بن واسول المكناسي
صاحب ماشية كثيرة ، ينتجع موضع سجلماسة، ويتردد إليها وكان براحا يجتمع
الناس فيه من قبائل البربر المجاورين له يتسوقون فيه . فاجتمع قوم من الصفرية
على أبي القاسم، وسكنوا معه هنالك في خيمات . ثم شرعوا في البناء في حدود
الأربعين ومائة (140 هـ) . ثم قدّموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود وولوه
أمرهم . ثم أنكروا عليه أشياء فأخذوه وشدوا وثاقه . وربطوه إلى شجرة في رأس
جبل، وتركوه حتى مات << .

تولى بعد ذلك مقاليد الأمور بعده أبو القاسم سمغون بن واسول المكناسي الملقب بمدرار على رواية ثلثة من المؤرخين ، غير أن ابن الخطيب قال بان أبا الخطاب الصفري الزناتي هو من تولى بعده ، وكان داهية وحسن تدييره ، وقد حكم أبو القاسم سمغون ابن واسول المكناسي (مدرار) من 155 إلى 168 هـ على رواية ابن عذاري ، بينما يجعلها ابن خلدون سنة 167 هـ والتف الناس حوله . خلفه ابنه إلياس الملقب بالوزير سنة 167 هـ لكن أهل سجلماسة ثاروا عليه وخلعوه سنة 174 هـ .

تولى أخاه اليسع الملقب بابي منصور الحكم ويعتبر هو المؤسس الحقيقي للدولة فبنى الأسوار واختط بها المصانع والقصور وكثرت الغلات والمحاصيل فعمّر سجلماسة ودان له البربر وصارت لدولته هيبة وسطوة ، وقد ذكر ابن خلدون بعض أخبار هذا الحاكم بقوله : >> وولوا مكانه أخاه اليسع بن أبي القاسم وكنيته أبو منصور فلم يزل أميرا عليهم وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته وكان اباضيا صفريا ، وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة وهو الذي أتم بناءها وتشبيدها واختط بها المصانع والقصور وانتقل إليها آخر المائة الثانية ودوخ بلاد الصحراء وأخذ الخمس من معادن درعة ، وأصهر¹ لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدارار في ابنته أروى فأنكحه إياها << .

بعد وفاة اليسع تولى ابنه المدارار الملقب بالمنتصر سنة 208 هـ وتزوج ببنت عبد الرحمان بن رستم فمال إليهم فخلعه قومه وولّوا ابنه ميمون سنة 253 هـ الذي تولى الإمارة حتى خلفه ابنه محمد سنة 263 هـ ثم تولى عمه اليسع سنة 270 هـ وهو من سجن عبيد الله المهدي عند قدومه للمغرب فزحف أبو عبد الله الشيعي على سجلماسة وقتل اليسع سنة 296 هـ . ، ويقر ابن عذاري المراكشي بأفول نجم دولة المدارارين صراحة على يد أبي عبد الله الشيعي هذه السنة بقوله : >> ثم زحف إليه الشيعي من أفريقية، وفرأمامه، وخرج عبيد الله من سجلماسة من سجنه، واستولى على المملكة. ثم ظفر به في سنة 296 هـ ، فقتله، فكانت مدة اليسع ابن مدارار المذكور بسجلماسة سبعا وعشرين سنة . وانقرضت دولة بني مدارار

¹ من المصاهرة .

بسجلماسة وما والاها ، فكانت مائة سنة ونحو ستين سنة . فولى عليها الشيعي عامله فوثب عليه أهلها فقتلوه ، فكانت مدته بها خمسين يوما << .
بعد أن سقطت سجلماسة في قبضة أبي عبد الله الشيعي وقبل مغادرته لها عين عليها إبراهيم بن غالب المزابي ، لكن بعد خروج أبي عبد الله الشيعي ثار أهل سجلماسة على إبراهيم وقتلوه وقدّموا الفتح بن ميمون بن مدرار سنة 298 هـ ثم خلفه أخوه أبو العباس احمد سنة 300 هـ لكن المهدي الفاطمي وجه إليه مصالة بن حبوس بجيشه فافتتح سجلماسة عنوة وقتل أبو العباس سنة 309 هـ فخضعت سجلماسة لحكم الفاطميين ، غير انم صالة بن حبوس رأى بان يؤمّر عيهم من بني جلدتهم اتقاءً للثورات فعين المعتز بن محمد وكان تابعا للفاطميين ومات سنة 321 هـ فخلفه ابنه محمد واستقام ملكه حتى توفي سنة 331 هـ فتولى ابنه المنتصر (عمره 13 سنة) فوثب عليه ابن عمه محمد بن الفتح وخلعه سنة 332 هـ وتنكر للفاطميين وسمى نفسه بأمر المؤمنين وتلقب بالشاكر ورفض المذهب الخارجي واخذ بمذهب أهل السنة وطبع السكة وكان عادلا حسن السيرة غير أن الفاطميين عزموا على تفتيت ملكه فهجم عليه جوهر الصقلي سنة 347 هـ وحاصر سجلماسة وخرج الشاكر منها وتحصن خارجها ثم دخلها متنكرا فقبضوا عليه وأرسلوه إلى القيروان ثم سجن برقادة حتى مات سنة 354 هـ .

ثانيا : الدولة الرستمية :

دخل الخوارج بقيادة أبي الخطاب في حرب ضروس مع الخلافة العباسية انتهت بمقتل زعيم الاباضية أبي الخطاب سنة 144 هـ ، وكان عبد الرحمان بن رستم يتأهب رفقة جيشه لتقديم المدد لزعيمة أبي الخطاب لكنه لما سمع بمقتله تراجع إلى المغرب الأوسط البعيد عن النفوذ العباسي واستقر بجبل سوفجج المحصن طبيعيا (قرب تهرت)² فتسامع به علماء الاباضية فقصدوه والتفت حوله قبائل هوارة ولواتة ، ثم لحقت به قوات العباسيين بقيادة ابن الأشعث وحاصرته فطال الحصار وسئم الجند العباسيون وفشى فيهم الطاعون وهلك عدد منهم ففكوا الحصار ، وبذلك خلا الجو لعبد الرحمان بن رستم واجتمع حوله الناس

² المعروفة حاليا باسم تيارت وهي ولاية جزائرية .

والعلماء والفضلاء ثم أسس مدينة تاهرت لتكون عاصمة مملكة سنة 144 هـ وأسس بها مسجدا جامعاً ثم اقبل الناس على بناء الدور والقصور والحمامات والفنادق والحوانيت والأسواق فعمرت المدينة.

وعن اجتماع الساكنة حول عبد الرحمان بن رستم يقول ابن الصغير المالكي : << فاجمعوا رأيهم على ذلك ثم نهضوا إليه بأجمعهم وقالوا يا عبد الرحمن رضيك الإمام في ابتدائنا³ ، ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا فقد علمت انه لا يُصلح أمرنا إلا إمام نلجأ إليه في أمورنا ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا . فقال لهم إن أعطيتموني عهد الله وميثاقه لتستطيبيوا إليّ ولتطيعوني فيما وافق الحق وطابقه . قبلت ذلك منكم . فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم وقدموه على أنفسهم والقوا إليه بأيديهم ، فسار بهم سيرة جميلة حميدة أولهم وآخرهم ولم ينقموا عليه في أحكامه حكماً ولا في سيره سيرةً ، وسارت بذلك الركبان إلى كل البلدان >> .

كان عبد الرحمان بن رستم من أصل فارسي قدم إلى المغرب مع العرب الفاتحين واستقر بالقيروان ودرس على يد علمائها واعتنق الاباضية ، ولم تتم مبايعته بالإمامة إلا في سنة 160 هـ بعد أن أرسى قواعد دولته ورسخ دعائمها ودانت له قبائل المنطقة وساد الأمن والسلام وكان إماماً عادلاً غير مستبد برأيه مستشير لأصحابه ، وأسس مجلساً للشورى وكان زاهداً في عيشه متواضعاً لقومه ، وقبل وفاته سنة 171 هـ اقتدى بعمر بن الخطاب وعين سبعة من خيرة رجال دولته وأوكل إليهم مهمة اختيار الحاكم من بعده وقد اختاروا ابنه عبد الوهاب وبايعوه بالإمامة .

غير أن هناك من لم يقبل بالوضع الجديد تحت إمرة الحاكم الجديد (عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم) حيث قام يزيد بن فندين بالطعن في

³ ويقصدون أبا الخطاب المعافري لما عين عبد الرحمان بن رستم والياً على القيروان في 141 هـ .

إمامة عبد الوهاب وأنكر إمامته وبذلك ظهرت فرقنا النكارية⁴ والوهبية⁵ ودخلوا في حرب انتهت بهزيمة النكارية ومقتل ابن فندين ، وبقي الخلاف بين الفرقتين ، كما حاولت قبيلة هواره الخروج عن طاعة عبد الوهاب وبعدها ساد الهدوء والاستقرار الدولة وامتد نفوذه حتى طرابلس وتوفي عبد الوهاب سنة 211 هـ .

لقد ذكر ابن الصغير بعض أوصاف عبد الوهاب بن عبد الرحمان وفضائل أعماله بقوله : << وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له من أمر الاباضية وغيرهم ما لم يجتمع للاباضية قبله ، ودان له ما لم يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد قبله ، ولقد حكى لي جماعة من الناس انه قد بلغت سمعته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملا المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان ، فلم يزل كذلك وعلى ذلك وأمور الناس مجتمعة وكلمتهم واحدة لا خارج عليه ولا طاعن إلى أن حدثت الفرقة ... وكان لعبد الوهاب كتاب معروف بمسائل نفوسة الجبل ، لأن نفوسة كتبت إليه في مسائل أشكلت عليها فأجابها عن كل مسألة مما سألت عنه ، وكان هذا الكتاب في أيدي الاباضية مشهورا عندهم معلوما يتداولونه قرنا عن قرن >> .

بعد وفاة عبد الوهاب بن عبد الرحمان اجتمع أهل الشورى واختاروا افلح بن عبد الوهاب وبايعوه لورعه وتقواه وحسن سيرته التي يقول عنها الدرجيني في كتابه طبقات المشائخ بالمغرب : << ولما توفي عبد الوهاب تدانى العدة من تاهرت طمعا في الاستيلاء عليها ورجوا الظفر بها وبأهلها لما ظنوه من عجزهم عن المدافعة إذا أضحوا بلا إمام فابتدر جماعة أهل الدعوة فبايعوا افلح بن عبد الوهاب فعقدوا له الإمامة فكان ميمون النقيبة فسكن به الله البلاد ووقيه من الفساد >> .

⁴ هم أتباع يزيد بن فندين أبو قدامة النكاري وسموا كذلك لإنكارهم إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم وثاروا ضده .

⁵ الوهبية هي الاباضية الأم الحاكمة في دولة بني رستم وهي نسبة إلى الإمام الرستي الثاني عبد الوهاب بن رستم وظهرت هذه التسمية اثر فتنة النكار السالفة الذكر . ابن الصغير :

المصدر السابق ، ص 37 ، هامش 34 .

اعتنى افلح بن عبد الوهاب بدولته وعدل في رعيته فانتهى الأمن وازدهرت الدولة وقضى على ثورة خلف بن السمح كما نشبت ثورة أخرى بقيادة فرج النفوسي وبدا يثير الفوضى فحذره الإمام افلح وتوعده ففر هذا الثائر إلى بغداد إلى أن توفي في 240 هـ .

تولى الإمامة أبو بكر بن افلح وعن سيرته يقول ابن الصغير: >> فلما وُلِّي أبو بكر لم تكن فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه ، ولكن كان سمحا جوادا لين العريكة⁶ يسامح أهل المرؤات ويشايعهم على مرؤاتهم ويحب الآداب والأشعار وأخبار الماضين ... وكان بالبلد رجل يعرف بمحمد بن عرفة ، وكان وسيما جميلا جوادا سمحا ... وكان لابن عرفة هذا أخت أو بنت أجمل منه فخطب إليه أبو بكر بن افلح ودخل بها ... فكانت الإمارة بالاسم لأبي بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة << .

وبذلك كان أبو بكر بن افلح يميل إلى الراحة والخمول فانغمس في الترف واللهو وأوكل مهمة التواصل مع رعيته لصهره ابن عرفة الذي ازداد نفوذه وتعززت مكانته ثم كثرت استبداده فأمر الإمام أبو بكر أحد غلمانه فقتله بعد أن دارت وقية بين الفريقين ودخلت الدولة في فتنة وكثر القتل والحرق .

تولى الحكم سنة 241 أخوه أبو اليقظان محمد هـ وتمكن من إخماد الفتنة وفرض الأمان وساد الأمن وبسط العدل بين الناس واطمأن الناس على حياتهم ومعاشهم وبقي كذلك حتى توفي في 281 هـ ، وعن سيرة هذا الإمام يقول الدرجيني : >> حدث غير واحد من أصحابنا أن محمدا بن افلح أجمعت على توليته جماعة المسلمين ، فولوه على أنفسهم ، فلم يختلف عليه اثنان ، وبلغ الغاية في العدل والفضل والافتداء بمن سلفه ، فكانت نفوسة فيما قيل لا يعدلون أيامه وسيرته إلا بأيام جده عبد الرحمان بن رستم ، وذلك أنهم اتخذوا مجلسه كالمسجد ... ومكث في إمامته أربعين سنة على هذا الحال ، محمود السيرة مجتهدا في الصلاح قائما بالحق قاضيا بالعدل إلى أن علت سنه ورق عظمه ، وتوفي رحمه الله ، وله تأليف في الرد على أهل الخلاف لا يُشَق فيها غباره ولا تياره << .

⁶ الطبع والخلق .

بعد وفاة أبي اليقظان محمد خلفه أبو حاتم يوسف بن محمد وكان إماما عادلا ورعا لكن كثرت في عهده الثورات والفتن فخرج عليه عمه يعقوب بن افلاح في تاهرت وقامت ثورة في طرابلس بقيادة الطيب بن خلف فسقطت هيبة هذا الإمام فتآمر عليه أبناء اليقظان (أخوه من الأب) فقتلوه سنة 294 هـ .

بويح اليقظان بعد مصرع أخيه وتولى الإمامة والدولة مضطربة أمورها منقسمة على نفسها خاصة بعد قدوم الفاطميين وصاروا يهددون كيان الرستميين وفي سنة 296 هـ دخل أبو عبد الله الشيعي تاهرت وقتل أبا اليقظان ومن ظفر به وبني رستم وصادر أموالهم توجه إلى المكتبة المعصومة واخذ كتبها وبذلك زال حكم الرستميين وفرما تبقى من ساكنتها إلى جبل الأوراس وصحراء المغرب والأوسط وجبل نفوسة وجزيرة جربة .